داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان
فاتح حصن المرأة ومحاصر القسطنطينية[1]

اللواء الركن محمود شيت خطاب

نسبه وأيامه الأولى :

هو داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ القرشي الأموي[2].

أبوه أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بن مروان . وأمه من أمهات

---

(١) حصن المرأة : لا ذكر له في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة ، والظاهر أنه حصن من حصون الروم مما يلي (مَلَطْيَة) ، انظر الطبري (٥٤٥/٦) وابن الأثير (٣٦/٥) وابن خلدون (١٥٦/٣) .

(٢) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٢٣/٥) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٠٩/١) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ – ١٠٥) وفوات الوفيات (٣١/٢) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

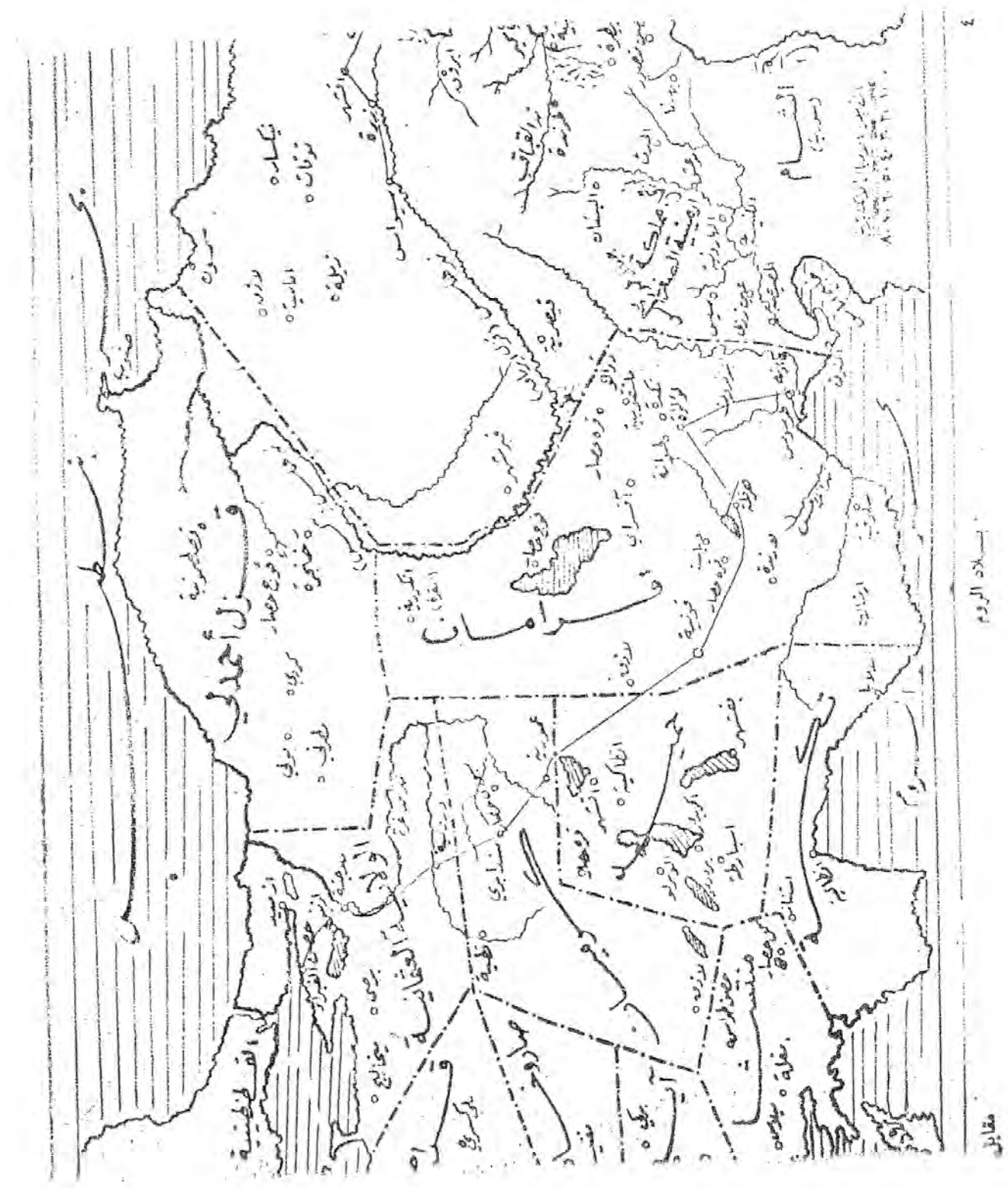

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأولاد [١] ، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد الجواري والإماء اللواتي ولدن لمواليهن ذكوراناً .

تربى تربية أبناء الخلفاء، فوالده سليمان وجده عبد الملك بن مروان وجد أبيه مروان بن الحكم خلفاء ، فلا بد أنه تلقى علوم القرآن والحديث والدين والتاريخ واللغة والأدب على أساطين العلماء في أيامه ، كما تلقى العلوم العسكرية النظرية والعملية على المبرزين في تلك العلوم .

كما مارس الأعمال الادارية والسياسية والعسكرية عن كثب ، وشهد كيف تعالج أمور الدولة المختلفة وتعطى القرارات في محيط الخلفاء والأمراء والقادة على أعلى المستويات .

ومن الواضح أنه أصبح موضع ثقة والده ، فولاه قيادة بعض الصوائف [٢] وأراد أن يجعله ولي عهد بعد أخيه أيوب الذي توفي قبل أبيه سليمان بن عبد الملك [٣] ، وهذا دليل على أنه أصبح أبرز إخوته بعد وفاة أخيه أيوب ، وأن العلوم النظرية والعملية والتدريب العملي التي تعلمها في أيامه الأولى أثمرت كفاياته ، فأصبح قادراً على تحمل المسؤوليات السياسية والإدارية والعسكرية على حد سواء .

لقد كانت أيامه الأولى تعليماً وتدريباً وتجارب تشابه أنداده من أبناء الخلفاء كمسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، إلى حد كبير [٤] .

---

(١) العيون والحدائق (٣٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٣/٢٠٣) .

(٢) الصوائف : جمع الصائفة ، وهي الغزوة التي تخرج صيفاً .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٠٣) .

(٤) انظر سيرة مسلمة بن عبد الملك وسيرة العباس بن الوليد بن عبد الملك.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جهـــاده :

١ - في سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى (القسطنطينية) ، واستعمل ابنه داود على الصائفة ، فافتتح حصن (المرأة) [١] .

والظاهر أن داود كان قائد القوات الساترة ، لحماية إعداد الجيوش وحشدها بالقرب من الحدود الاسلامية الرومية ، ولحرمان الروم من التدخل المباشر أو غير المباشر في عرقلة الإعداد للجيوش تنظيماً وتجهيزاً وتسليحاً وتدابير إدارية ، ولمنعهم من التأثير المباشر أو غير المباشر في حشدها استعداداً للتحرك إلى (القسطنطينية) ، لكي يتم الإعداد والحشد حسب الخطة المرسومة .

وكانت منطقة إعداد الجيوش في (دابق) [٢] ، وكانت خطة سليمان ابن عبد الملك في ستر هذه المنطقة وحمايتها لاستكمال متطلبات الإعداد والحشد تتلخص بإرسال الصوائف إلى بلاد الروم شمالاً ، للسيطرة على الحصون التي تقع في منافذ جبال (طورس) الحصينة ، فعملت تلك الصوائف عمل القوات الساترة بأسلوب (التعرض) بالحركة ، لا بأسلوب (الدفاع) المستكن ، وبذلك حققت هدفين في آن واحد : الأول حماية منطقة الإعداد والحشد ، والثاني السيطرة على الحصون الجبلية التي تتحكم في الطرق القريبة المؤدية إلى بلاد المسلمين .

---

(١) الطبري (٦/٥٢٣) وابن الأثير (٥/٢٠) وابن خلدون (٣/١٥٥) .

(٢) دابق : قرية بقرب مدينة (حلب) ، وهذه القرية من أعمال (اعزاز) بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب ، كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد نجحت هذه الخطة نجاحاً كبيراً ، وهي خطة حصيفة بلا مراء .

٢ – وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) غزا داود أرض الروم ، ففتح حصن (المرأة) مما يلي (ملطيّة)[١] مرة ثانية[٢] كما افتتح حصن (الأجرب)[٣] .

وقد تكرر فتح حصن (المرأة) في هذه السنة ، إذ سبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجرية ، مما يدل على أن الروم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلة المدافعين عنه وهو الأرجح ، أو لانسحاب داود منه بعد فتحه صيفاً ، واحتمال الانسحاب منه ضعيف ، لأن المسلمين لا ينسحبون من موقع فتحوه إلا لأسباب قاهرة .

وكان إعادة فتح هذين الحصنين في هذه السنة ، هو لتأمين خطوط الجيوش الاسلامية الزاحفة لفتح (القسطنطينية) ، لأنها الشريان الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية بالقسطنطينية ، وعليها تتحرك الإمدادات الإدارية والبشرية من تلك القواعد

---

(١) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم أرض الشام شمالاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٠/٨) وتقويم البلدان (٣٨٤) والمسالك والممالك للاصطخري (٤٦) .

(٢) الطبري (٥٤٥/٦) وابن الأثير (٣٦/٥) وابن خلدون (١٥٦/٣) والنجوم الزاهرة (٢٣٦/١) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٣) تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) ، ولا ذكر لحصن الأجرب في المصادر الجغرافية القديمة ، ومن المحتمل أن يكون حصناً صغيراً في منطقة (ملطية) بالقرب من حصن المرأة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمامية إلى الجيوش الزاحفة ، وكل قائد لا بدّ له من تأمين خطوط مواصلاته بالرايا في المناطق الجبلية والحصون .

والظاهر أن داود استعاد حصن (المرأة) وفتح حصن (الأجرب) في طريقه إلى (القسطنطينية) ، فقد كان قائد أحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الروم ، بصحبة عمه مسلمة بن عبد الملك الذي تولى القيادة العامة سنة ثمان وتسعين الهجرية [١] .

٣ - وكان داود بإمرة عمه مسلمة قائداً مرؤوساً في ملحمة حصار (القسطنطينية) ، وبقي معه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) حتى تم انسحاب مسلمة من (القسطنطينية) بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجرية [٢] (٧١٧ م) وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، فأمر عمر بالقفول منها بمن معه من المسلمين [٣] ، بعد أن بقي المسلمون يحاصرون (القسطنطينية) ثلاثين شهراً [٤] .

---

(١) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤) .

(٢) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعبر (١١٨/١) والمسعودي (١٨٢/٣) وشذرات الذهب (١١٦/١) والعيون والحدائق (٣٣) والتنبيه والإشراف (٢٧٥) .

(٣) الطبري (٥٥٣/٦) وانظر ابن الأثير (٤٣/٥) والعيون والحدائق (٣٩) وسيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) والمعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٦/١) .

(٤) البدء والتاريخ (٤٤/٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان سليمان بن عبد الملك قد أرسل ولده داود مع مسلمة إلى (القسطنطينية) [١] وبقي معه إلى نهاية الحملة .

وهكذا أدى داود واجبه قائداً فاتحاً ، ومحاصراً لعاصمة الروم ، وكان في الحصار الرجل الثاني على الجيوش الإسلامية بعد عمه مسلمة بن عبد الملك [٢] .

الإنسان :

كان لسليمان بن عبد الملك أربعة عشر ذكراً [٣] ، منهم أيوب أمه أم أبان بنت خالد بن الحكم بن أبي العاص ، ويحيى وعبيد الله [٤] أمهما عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان ، ويزيد والقاسم وسعيد أمهم أم يزيد بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الواحد وعبد العزيز أمهما أم عمرو بنت عبد الله بن أسيد ، وداود ومحمد وعمر وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى ، والحارث لأم ولد وفي أيوب يقول جرير :

إنّ الإمام الذي تُرْجَى فواضِلُهُ ... بعد الإمام وليُّ العَهْدِ أيّوب

وقد مات أيوب في حياة أبيه . وأما محمد فكان صاحب لهو وباطل، أدرك الوليد بن يزيد . وأما عبد الواحد فولاه مروان بن محمد المدينة وقتله صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وأخذ ماله ، وفيه يقول ابن هَرْمَة :

---

(١) العيون والحدائق (٣٨) وانظر الطبري (٥٥٠/٦) وابن الأثير (٣٩/٥) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٢) انظر حصار القسطنطينية في : سيرة مسلمة بن عبد الملك .

(٣) العيون والحدائق (٣٤) .

(٤) في العيون والحدائق (٣٤) : عبد الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذا قيلَ مَنْ خَيْرُ مَنْ يُرْتَجَى لِمُعْتَرِّ فِهْرٍ ومُحْتَاجِهَا
ومَنْ يُعْجِلُ الخيلَ يومَ الوَغَى بِالْجَامِهَا قَبْلَ إسْرَاجِهَا
أشَارَتْ نساءُ بَنِي مَالِكٍ إليْكَ به قَبْلَ أزْوَاجِهَا

وأما عبد الرحمن فمات وهو شاب ، وأما الحارث فكان من رجالهم جَلَداً وذِكْراً ، وأما يزيد فمات قبل تولي العباسيين (١) .

وأما داود ، فقد كان أبرز إخوته بعد أيوب ، لأن والده أراد أن يعهد إليه ليتولى الخلافة من بعده ، على الرغم من أنه ابن أمةٍ ، وكانوا يكرهون ذلك ولا يولّون إلا ابن حُرّة (٢) ، كما هو معروف في تقاليد بني أمية .

فقد ذكر رجاء بن حَيْوَة ، وكان من أعْبَد ، وهو رجل من أهل (الأردن) كان موصوفاً بالحكمة والسّدّة ، مرضياً في دينه وأمانته ، وكانت ملوك بني أمية تثق به لفضله وشرف نفسه (٣) - أن سليمان بن عبد الملك مَرِضَ مرضاً شديداً ، فلما ثقُل عهد ، في كتاب كتبه ، لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلُغ ، فدخل عليه رجاء وقال : « ما تصنع يا أمير المؤمنين ! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجلَ الصالح » ، فقال سليمان : « أنا أستخير الله وأنظر فيه ، ولم أعزم عليه » ، فمكث يوماً أو يومين ، ثم خرّقه . ودعا سليمان رجاء فقال له : « ماترى

(١) العيون والحدائق (٣٤ - ٣٥) وانظر جمهرة أنساب العرب (٩٠ - ٩١)
(٢) تهذيب ابن عساكر (٣/٢٠٣) .
(٣) العيون والحدائق (٣٨) والبداية والنهاية (٩/١٨١ - ١٨٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في داود بن سليمان ؟ » ، فقال رجاء : « هو غائب عنك بالقسطنطينية ، ولا تدري أحي هو أم ميت » ، فقال : « فمَنْ ترى ؟ » ، فأجابه رجاء : « رأيك يا أمير المؤمنين ! » ، فقال سليمان : « كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ » ، فقال : « أعْلَمُهُ ، واللهِ ، خيّراً فاضلاً مسلماً ، فقال سليمان : هو ، والله ، على ذلك ، ولئن ولّيْتُه ولم أولّ أحداً سواه ، لتكونَنّ فتنةٌ ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعدَه » . فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر (١).

وقد كان الناس يقولون عن سليمان بن عبد الملك : « سليمان مفتاح الخير » (٢) ، فلا يمكن أن يفكر في تولية داود الخلافة من بعده وهو على فراش الموت ، إلا إذا وجد فيه مزايا وكفاية وعقلاً ودينا .

ولم يرد له ذكر في الخلافات والفتن التي تفجرت في داخل بني أمية ، ففرّقت صفوفهم وجعلتهم شيعاً ، فكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتقال الخلافة منهم إلى بني العباس ، كما لم يرد له ذكر في تولي المناصب الإدارية والقيادية ، منذ عودته من حصار (القسطنطينية) حتى قتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) يوم نهر (أبي فُطْرُس) (٣) . فقد

---

(١) الطبري (٥٥٠/٦) وابن الأثير (٣٩/٥) والعيون والحدائق (٣٨) وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) وابن خلدون (١٦١/٣) .

(٢) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعيون والحدائق (١٧) .

(٣) جمهرة أنساب العرب (٩١) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) . ونهر أبي فطرس : موضع قرب مدينة (الرّملة) من أرض فلسطين ، على اثني عشر ميلاً من (الرملة) في سمت الشمال ، ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بمدينة (نابلس) وينصب في البحر بين مدينتي (أرسوف) و (يافا) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٣/٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تتبّع عبدُ الله بن علي بن عبد الله بن العباس عم السفاح أولُ خلفاء العباسيين — بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس ، فقتلهم بنهر (أبي فُطْرُس ، فلما فرغ منهم قال :

بني أميّة قد أفنيتُ جمعَكمُ ... فكيف لي منكمُ بالأوّلِ الماضي
يُطَيِّبُ النّفسَ أن النار تجمعكم ... عُوِّضْتُمُ من لظاها شرّ مُعتاضِ
مُنِيتُمُ لا أقالَ اللهُ عثرتَكم ... بليثِ غابٍ إلى الأعداء نَهّاض
إن كان غَيْظي لفَوْتٍ منكمُ فلقد ... مُنِيتُ منكم بما ربّي به راض (١)

فإذا صح أن عبد الله العباسي قال هذا الشعر أو لم يقله ، فالأمر سيّان في رأيي ، لأنه أفرط في إبادة بني أمية ، لا فرق بين مذنب وبريء ، فاحترق الأخضر واليابس ، وقتل الصالح والطالح ، وخسر المسلمون خير قادتهم وإداريهم ورجال دولتهم دون مسوّغ .

وعلى الرغم من حمامات الدم التي لطخ قسم من العباسيين أيديهم بها ، وعلى الرغم من الإرهاب الشنيع الذي مارسه هؤلاء دون شفقة ولا رحمة ، فقد ارتفعت أصوات شجاعة في رثاء قتلى بني أمية ، ولا جدال في أن الشعر الذي قيل في رثائهم كان شعراً صادقاً ، لأنه لا نوال يُرجى من بني أمية ولا زلفى ، بعد أن دالت دولتهم ، وأصبحوا أحاديث للناس وتاريخاً .

قال إبراهيم مولى قائد العَبْلي يرثيهم :

---

(١) ابن الأثير (٥/٤٣٠ - ٤٣١) . وانظر معجم البلدان (٨/٣٣٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أفاضَ المدامعَ قتلى كُدَى (١) وقتلى بكُثْوَة (٢) لم تُرْمَسِ
وقتلى بِوَجّ (٣) وباللابتَيْن (٤) بيَثْرِبَ (٥) هم خيرُ ما أنفُسِ
وبالزابيين (٦) نفوسٌ ثَوَتْ وأخرى بنهر أبي فُطْرُس
أولئك قومٌ أناخت بهم نوائبُ من زمنٍ متعس
إذا ركبوا زيَّنوا المركبين وإن جلسوا زينة المجلسِ

(١) كدى : وردت في معجم البلدان : كُدى ، ومفتوحة الكاف هي : كداء ، موضع بمكة المكرمة عند (ذي طُوى) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٢٠ – ٢٢٣) .

(٢) كثوة : ورد ذكرها في معجم البلدان (٧/٢١٨) دون أن يذكر مكانها .

(٣) وَجّ : هي مدينة الطائف في الحجاز ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٩٩ – ٤٠٠)

(٤) اللابتان : تثنية (لابة) وهي الحرّة ، وجمعها : لاب : وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم مابين لا بَتيْها : يعني المدينة المنورة ، لأنها بين الحرتين . واللابة لغة : الأرض التي ألبستها الحجارة السود ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٠٨ – ٣٠٩) .

(٥) يثرب : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٩٨ – ٤٩٩) ، وهي المدينة المنورة التي فيها مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقبره الشريف .

(٦) الزاب : نهر معروف في العراق الشمالي الشرقي ، وهما زابان : الزاب الأعلى ، والزاب الأسفل ، وربما قيل لكل واحد من نهري الزاب : زابي ، والتثنية : زابيان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٦٣ – ٣٦٤) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٢٩ – ٢٣٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هُمُ أضرعوني لريْب الزّمان ... وهم ألصقوا الرّغْم[1] بالمعطَسِ
فما أنسَ لا أنسَ قتلاهُمُ ... ولا عاش بعدهمُ مَنْ نَسِي[2]

وقال :

أبكي على فِتْيةٍ رُزِئْتُهُمُ ... ما إن لهم في الرجال من خَلَفِ
نهر أبي فُطْرُس مَحَلّتُهُمُ ... وصبّحوا الزابيين للتلف
أشكو إلى الله ما بُليتُ به ... من فقْدِ تلك الوجوه والشّرَف[3]

وقال :

بكيتُ وماذا يردّ البكا ... وقلّ البُكاء لقتلى كُدا
أصيبوا معاً فتولّوْا معاً ... كذلك كانوا معاً في رَخا
بكت لهمء الأرض من بعدهم ... وناحت عليهم نجومُ السّما
وكانوا ضيائي فلما انقضى ... زماني بقومي تولى الضّيا[4]

ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الشعر الصادق إلا في رثاء مَنْ ظُلِمَ، لا في رثاء من ظَلَمَ ، وكان داود ممن ظُلِم حقاً ومعه من أنداده وآل بيته كثير ، إذ لم يشهد الاقتتال في الصراع على المُلك بين الأمويين والعباسيين ، كما أن يوم نهر (أبي فطرس) كان بين قوتين غير متكافئتين: جماعة من بني أمية عزّلٌ من السلاح ، وقوة مدججة بالسلاح من بني العباس وجيشهم ، وأكثر الأمويين في تلك المنطقة كانوا ممن اعتزلوا الاقتتال .

---

(١) الرغم : الكره والذل والهوان ، يقال : فعله على رغمه .
(٢) معجم البلدان (٣٠٩/٧) و (٣٣٣/٨)
(٣) معجم البلدان (٣٣٤/٨)
(٤) معجم البلدان (٢٢٣/٧)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما هكـذا كان العرب يقاتلون ، ولا بذلك نصت تعاليم القتال في الاسلام .

وهذا الذي أوردته من شعرٍ في الرثاء لقسم من الذين ظُلموا بغير حق من بني أمية ، هو جزء يسير مما قاله شاعر واحـد في رثاء هؤلاء المظلومين بعد أن أصبحوا رجالاً بلا غدٍ ولا سلطة ولا مال ، فما بالك بما قاله الشعراء الآخرون الذين رثوا المظلومين من بني أمية ، وهم عدد ضخم من الشعراء ، عاش شعر بعضهم وطوت الأيام شعر الأكثرين ، لم يخشوا السُّلطة الغاشمة ، ولم يخافوا الوعيد والسجون والقتل والتشريد ، بل عبَّروا عن شعورهم بشجاعة وصدق وأمانة .

ولم يقتصر رثاء المظلومين من بني أمية على الشعراء وحدهم ، بل شمل غيرهم من الأدباء والعلماء وأفراد الشعب العربي ، وقد عبَّر كل واحد منهم بطريقته وأسلوبه ، ولكن معظم هذا الرثاء دُمِّر كما دُمِّر بنو أمية وأبيد كما أبيدوا .

وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على ما حاق بالأبرياء من بني أمية من ظلم شنيع .

ولعل داود كان من جملة المظلومين ، فلم يحدثنا التاريخ أنه شارك في الاقتتال بقلبه أو بلسانه أو بسيفه ، فلماذا يقتل وترمى جثته في الطرقات ؟

لقد ذكرنا أنه بدأ حياته العملية في الجهاد سنة سبع وتسعين هجرية (٧١٥ م) ، وأنه قُتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) . واعتيادياً تبدأ الحياة العملية لأبناء الخلفاء وأضرابهم في العشرين من سني حياتهم ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، ومعنى ذلك أنه ولد سنة سبع وسبعين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الهجرية (٦٩٦ م) تقريباً،أي أنه عاش خمساً وخمسين سنة قمرية وثلاثاً وخمسين سنة شمسية .

القائـــد :

١ — لم يشهد داود غير غزوتين تمهيديتين لحصار (القسطنطينية) : الأولى لستر إعداد الجيوش وحمايتها بأسلوب التعرض بالحركة لا بأسلوب الدفاع المستكن ، والثانية بقيادة جيش من جيوش المسلمين في مرحلة : مسير الاقتراب ، لتطهير الجيوب الثابتة للعدو،وتأمين خطوط مواصلات الجيوش.

فلما انتهت مرحلة : مسير الاقتراب ، ووصلت جيوش المسلمين إلى (القسطنطينية) ، بدأت مرحلة حصار هذه المدينة ، فشهد الحصار منذ بدايته حتى نهايته ، وكان في هذه المرحلة الساعد الأيمن لعمه مسلمة بن عبد الملك القائد العام للجيوش الاسلامية في مرحلة الحصار ، وكان الرجل الثاني في تسلسل القيادة بعد مسلمة ، فكانت هذه الغزوة هي الثالثة من غزواته قائداً .

٢ - وتدل الغزوة الأولى لداود : غزوة فتح حصن (المرأة) ، أنه كان قائداً (تعرضياً) ، فقد قام بواجب القطع الساترة لجيوش المسلمين التي يجري إعدادها في القاعدة الأمامية (دابق) ، ولكن بأسلوب جديد يتخذ (التعرض) بدلاً عن (الدفاع) ، فيستر قوات المسلمين ويحميها ، ويحرم الروم من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين وتدابيرهم العسكرية ، ويسيطر على الطرق القريبة التي تقود الروم إلى قاعدة المسلمين الأمامية بفتح الحصن الرومي الذي يسيطر على تلك الطرق .

ونستنتج من ذلك بعض مزايا داود القيادية ، فهو يتسم بمبدأ (التعرض)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أهم مبادىء الحرب ، ويؤدي واجبه بأسلوب تعبوي جديـــد ، إذ المفروض أن واجب (السيتار) يتم بالدفاع أمام الموضـع الأصلي بمسافة كافية تمنع العدو من التصدي لذلك الموضع بالنـار والنظر ، ولكنه أدى هذا الواجب بالتعرض لا بالدفاع ، وهذا أسلوب جديد في التعبئة . وهو قدير في ممارسة الحروب الجبلية التي تتطلب كفاية قيادية عالية ، وهو قادر على التصدي للحصون المنيعة وقادر على فتحها .

وكل هذه القابليات من صفات القائد المتميز .

٣ — وتدل الغزوة الثانية لداود : غزوة استعادة فتح حصن (المرأة)، وقيادة رَتَل من أرتال المسلمين الزاحفة لفتح (القسطنطينية) في مرحلة مسير الاقتراب ، أن داود كان يتسم بالحذر والحيطة ، فيحمي جيشه في مسيرته بالرايا عند اجتياز المناطق الجبلية ، وبقطع الحماية : الميمنة والميسرة والمؤخرة والمقدمة في حركته على المناطق المكشوفة ، ويحمي طرق مواصلاته بالسيطرة على المراكز الحصينة التي تتحكم في تلك الطرق ، ويحسب لكل شيء حسابه فلا يفسح المجال للعدو أن يهدد طرق المواصلات بالغارات أو بحوب العصابات .

والحذر والحيطة وإدخال أسوأ الاحتمالات في الحساب ، من صفات القائد المتميز أيضاً .

٤ — وتدل الغزوة الثالثة لداود : غزوة حصار (القسطنطينية) ، أنه كان قائداً يتحلى بالضبط المتين ، لأن العرب لا تصبر على الحصار المديد ، كما لا تصبر على البرد الشديد ، وقد عانى المحاصرون ظروفاً قاسية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النار اليونانية ، وقلة الزاد ، والخسائر الفادحة بالأرواح ، وانهيار المعنويات ، وكل هذه المعضلات تحتاج إلى قائد مسيطر قادر ، يحول دون تسرب المقاتلين من ساحة المعركة إلى مكان آمن بعيد عن الأخطار .

كما أن ثباته العنيد مدة ثلاثين شهراً ، يدل على تمتعه بالشجاعة والإقدام، وتحمله الأهوال والصعاب .

وقد دارت معارك طاحنة بين الطرفين فتحمل مسؤولية القتال وصبر وصابر ، مما يدل على اتقانه القضايا التعبوية بكفاية وإتقان .

كما صادفته مشاكل إدارية قاسية ،فعالج تلك المشاكل وتغلب عليها ، مما يدل على قابليته في حل المشاكل الإدارية .

وصادف مشاكل تردّي المعنويات ، فقاوم هذا التردي بأناة وصبر ، مما يدل على تمتعه بالمعنويات العالية ، فبقي مع الجيوش الإسلامية المحاصرة وكان بإمكانه الالتحاق بوالده في (دابق) حيث الأمن والرخاء .

كما شارك في قيادة انسحاب الجيوش الاسلامية من (القسطنطينية) إلى قواعد المسلمين ، مما يدل على قابليته التعبوية ومقدرته على تحمل المشاق .

ومن المعروف أن القائد المتميز هو الذي ينجح في قيادة معركة الانسحاب ، التي تعد بحق من أصعب صفحات القتال ، لأن الانسحاب يؤثر في معنويات المنسحبين ، كما يبذل العدو قصارى جهده ويزجّ بكل طاقاته في المطاردة محاولاً جعل الانسحاب الذي هو أحد صفحات القتال هزيمةً تحطم المعنويات وتكبد المنهزمين أفدح الخسائر .

لذلك كان نجاح القائد في السيطرة على الانسحاب ، وإحباط محاولات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العدو لقلبه إلى هزيمة ، يحظى ولا يزال بأعظم التقدير ، ويعتبر اختباراً صعباً للقيادة القادرة .

تلك هي صفات داود القيادية التي يمكن استنتاجها في غزواته الثلاث، وهي بدون شك ثقيلة الوزن بالنسبة لجميع الموازين .

٥ – وبالإمكان إضافة صفة أخرى إلى تلك الصفات ، وهي أن داود كان راسخ العقيدة ، فبقي ثلاثين شهراً في أحلك الظروف والأحوال ثابتاً لا يتزعزع . وأصحاب العقيدة الراسخة وحدهم يصبرون على البأساء والضراء وحين البأس ، فهي وحدها تهوّن الصعاب وتذلل العقبات .

كما أن أصحاب العقيدة الراسخة يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، ويضحون بها وهما أغلى ما يحرص عليه الانسان ، وغيرهم يضحون بكل شيء حرصاً على أموالهم وأنفسهم ، وكل أمر في سبيل العقيدة الراسخة هون .

ولقد كانت انتصارات المسلمين الأولين في أيام الفتح الإسلامي العظيم، انتصارات عقيدة ، لامراء .

٦ – ونستطيع أن نتبين بجلاء أن مزيتين من مزايا القائد المتميز الثلاث ، وهي : الطبع الموهوب ، والعلم المكتسب ، والتجربة العملية، باديتان للعيان بوضوح ، وهما المزية الثانية والمزية الثالثة .

أما المزية الأولى ، وهي الطبع الموهوب ، فمن الصعب أن نتلمسها في شخصيته القيادية ، فهو لم يتحمل مسؤولية قيادة كبرى ، ولم يمارس القيـــادة بعد عودته من (القسطنطينية) ، ولا نعرف سبباً لتخليه عن ساحات القتال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولست أشك في أن والده أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، لم يوله القيادة لأنه ولده حسب ، بل لأن فيه مزايا قيادية معينة أهلته لتولي القيادة ، فقد كان لسليمان أربعة عشر ولداً من الذكور ، لم يتسنم منهم منصب القيادة غير داود ، كما يدل ذلك على أن داود له ميل طبيعي لتولي قيادة الجيوش وله رغبة في القضايا العسكرية .

ولكن مزايا داود القيادية وميله ورغبته في النهوض بأعبائها ، ليس كل شيء في إثبات تحليه بسجية : الطبع الموهوب ، فالقادة الموهوبون تركوا بصماتهم على الأحداث الكبرى فتوحاً باقية وانتصارات خالدة .

ولم يترك داود مثل تلك الفتوح والانتصارات .

وإذا جعلنا قادة بني أمية طبقات ، وجعلنا أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي من قادة المشرق الاسلامي ، وعقبة بن نافع الفهري وموسى بن نُصير وطارق بن زياد من قادة المغرب العربي ، في قائمة الطبقة الأولى ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان في قائمة الطبقة الثانية ؛ فإن داود وأضرابه يصبح في قائمة الطبقة الثالثة .

وحسبه بهذا التقويم فخراً .

داود في التاريخ :

يذكر التاريخ لداود عزوفه عن تولي الخلافة ونصحه الصادق الأمين للخلفاء وذوي السلطان .

ويذكر له أنه كان يعتبر المناصب العالية تكليفاً لا تشريفاً ، فلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسع لتولي منصب القيادة ، بل سعى المنصب إليه ، فتولاه بكفاياته لا بنسبه.

ويذكر له أنه لم يشارك في الفتن الداخلية ولا انضم إلى الطامحين بالسلطة والحكم ، فاعتزل الفتن ، ولم يثرها بقلبه ولسانه وسيفه .

ويذكر له جهاده التمهيدي لفتح (القسطنطينية) ومشاركته المؤثرة في حصارها ، وتحمله الأهوال صابراً محتسباً .

ويذكر له أنه قتل مظلوماً ، فاحترق بنار فتنة لم يكن من دعاتها .

يرحمه الله جزاء ما قدم للمسلمين من جهد وجهاد .

بغداد محمود شيت خطاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net